

عن طرفك قصة

بقلم علي بدوي

- استطيع ان ارحب بك .. تفضل !

واسرعت اليها . فصعدت الدرجات القليلة ووضعت اصبعي على الجرس .. فكانت فريدة هي التي تفتح الباب .. لقد كانت اصغر من عمرها الحقيقي .. وكانت رقيقة وعيناها السوداوان وبشرتها البيضاء وشفتها الوردية ، تفتح لي طريقا الى جنة ، احتجبت خلف غابة من زهور البنفسج !

اخذت فريدة تستمع لفردي ، ولانتهاء من الدراسة ، والذهاب به الى غرفته للنوم . ان الساعة توشك ان تدق العاشرة .. وهي تحسب دقائقها وثوانها مثل ما احسب واكثر .. لانها تريد ان تستريح على الاريكة وتدخن سيجارتها وتسمع مني الاحاديث !

ولكن فردي كان ينظر الي ويتسمم . بالله كم كانت نظراته بريئة صافية .. لقد عرتني عيناه من اجنحتي التي حلفت بها لومودي . ثم اعاد فردي نظراته فاخرقت حجب الجسد واستقرت في القلب والضمير .. كانت عيناه السوداوان البريثان تاملان وجهي بهدوء ويتخلله ابتسام مضيء .. وفجأة سال فردي امه :

- لماذا لا يمكث الاستاذ محمود عندنا يا امه ؟

فاجابته ، مطرقة الرأس :

- لعله لا يستريح عندنا .. انك تضايق الاستاذ يا فردي .. قم الى النوم يا حبيبي . .

ابتسم فردي من اعماقه .. لقد فقد اياه منذ ثلاث سنوات . كان له من العمر اربع سنوات . ان الاب كلمة يقرأها في الكتاب . اما الاب في المنزل فخيال لا يدركه الاطفال الذين في سنه . لعله كان يامل ان امكث عنده في المنزل ، فاعوض عليه ، ما فقدته من حنان !

كانت الساعة تدق ، والاضواء يزداد سطوعها كلما تعمقت الظلمة في الخارج .. وانا احس بالقشعريرة من نظرات فريد الفاحصة .. التي كان يوزعها بيني وبين امه ، ثم يعقب كل نظرة بابتسامة حنان لا توصف . ادركتني موجة عاتية من برد الضمير .. وساءلت نفسي :

- اكون عيون الاطفال الى هذا الحد متفحصة لخيابا الصدور ؟

ولكني لم اسمع جوابا .. لقد شغلني عينا فريد الواسعتان .. واماتنا في قلبي حرارة الرغبة في اللقاء وكل الاماني التي تراود خيال رجل عندما يطرق باب منزل سيدة في الثلاثين ، فقدت زوجها منذ ثلاث سنوات !! وتذكرت تجربة حب فشلت بعد ان عمرت عاما ، لان عيون الاطفال كانت تميمت في نفسي حرارة المودة لتخلق من جديد صفاء لا يجده الانسان الا في بردي اخ او اخ مخلص . كانت نفسي لا تقوى يومذاك على تحمل القيام بتمثيل ادوار الخداع امام الاطفال ... وامام امهم في قبية من الزوج . لقد كانت بساطتهم تغلب على كل اساليب المرأة اذا احبت وارادت ان تيسر لحبيبها فرص اللقاء ولو اصطدمت بجثث اطفالها !!

قام فردي بعد جهد الى غرفته ، البسته امه منامته الناعمة الملونة واضحي براءة كله . ورمقني بنظرة قصت على اخر الافكار الشيطانية التي

الساعة تدق التاسعة .. وفريد جالس الى المنضدة يكتب وظائفه ويراجع دروسه . وامه تحاول ان تحل له ما استعصى على عقله الصغير وانا انقل الطرف بين فردي وامه . كانت فريدة امرأة فسي الثلاثين من عمرها فقدت زوجها وظلت وحيدة بلا زوج . وكنت قد عرفتها منذ عام ، ولم تتعد علاقتنا حدود الصداقة التي تمضي بين فنجان قهوة وسيكارة .. وقد يطول الوقت لقراءة بعض قصائد الشعراء القدماء او المحدثين !

كانت فريدة امرأة فنانة بطبعها . تحب الحديث والسمر وتدق الادب والفن . وتحب الاصدقاء وتخلص لهم وتبادلهم مما كانت تطفح به نفسها وافكارها . وكانت لها حياتها الخاصة التي تحرص عليها فلا يعرفها الا من شارك فيها . وكنت ازورها بين الحين والحين ، مرة تكون وحدنا ، ومرة التقى عندها ببعض الاصدقاء والصديقات فنجلس في الشرفة حيث تمتد امامنا بساطين خضراء وفيلات متنائرة تضم مئات القلوب السعيدة .

سالنتي فريدة قبل يومين ان اخبرها لتتفق على موعد لتلقي فيه . اذ عندما لقيتها اول امس كانت الصانعة موجودة ، تساهم في تنظيف الغرف وغسل البياضات . وابتسمت فريدة .. ان صانعتها القديمة قد تزوجت وهذه تحضر في الاسبوع مرتين ، وقالت لي وهي تكمل ابتسامتها : - ان حظهك اليوم جاء متأخرا .. لقد سبقتك الي الفسالة !

انني منذ عام احب هذه المرأة .. ولكن دون جدوى . كانت العلاقة فيما بيننا لا تتعدى بعض القبلات بين الحين والحين . قد ازورها لثلاث مرات فلا انال شيئا ، وقد ازورها وانال منها في كل مرة ، قبلة او اكثر .. لكن الجنة المفتحة الابواب ، كانت تبدو بعيدة ، تحجبها غابة من زهور البنفسج العطرة !

في اخر الجلسة اول امس قلت لها :

- لملك تنفرغين ذات يوم قريب ، قبل ان اسافر ؟

فاجابنتي بلطف :

- كنت اريد ان اسالك ذلك .. ارجو ان تخابرنني صباح الغد خابرتها صباح اليوم فاعتذرت ببعض الاشغال .. ولا ادري كيف خابرتها مساء ، فاجابنتي :

- حدثني بعد نصف ساعة فقد انفرغ كلية .. وان لم استطع فان الغد كله سيكون لك وحدك ! داعبتني هذه الكلمات الرقيقة فهزت مني الفؤاد .. وتذكرت طريقة تعبيرها واسلوبها فادركت ان اليوم غير الايام التي ذهبت . انه يوم لي وحدي .. لانه موعد غرام حقيقي !!

كان فردي لا يزال يقرأ دروسه . وهي تساعده .. تنظر اليه مرة والى مرة ، وترجونني ان اتحدث ، ولكنني كنت في شغل عنها وعن فردي . لقد تذكرت نفسي . انني اليوم لم اتزوج بعد . انني انا الاخر اوشك ان ابغ الثلاثين . ولم ازل وحيدا . لا زوجة لي تحبني ولا ولد ابصر فيه صورة نقية من ايامي الحلوة التي اعقبت زواجنا . خابرتها بعد نصف ساعة فقالت لي مستبشرة :

عمودة الى المعبد

يا شعبي المعبود هددني الصقيع وما التحقت بغير حبك
 أنا صيحة الثلج المحطم فوق قلبك
 أنا قد عرفت الحب يوما
 قد عشقت بغير دربك
 ورأيت كل سواحي تمضي وتفرق
 الاعين النجلاء والوجه المنسق
 اللهو والترف البديع وخطو فاتنتي المصفق
 وقصائدي شرب الضباب عروقها
 وأسود بين عيونها وجه الخريف
 وصديقتي لبست قناعا من تراب
 البدر أقسم سوف لا يدع السحاب
 وقصائدي كانت تضيع بلا ثواب
 ولأنها كانت تقال لغير حبك
 خفتت لحون ربيعها
 احترقت بشهبك
 يا ضيعة الكلمات تأكلها فلاه ،
 يا بؤسه من معبد هجرته اصداء الصلاة
 لكنني وأنا اوسد للظلام قصائدي
 بفرام عابثة تجيء وتبعد
 ورياح شيطان تدنس مسجدي
 ابصرتها عادت جميع سواحي
 وشراعي المجروح تنسجه مئات مغازل
 فركبت نحوك الف طير عاجل
 واذا انا بشمع حيك اهتدي
 واذا هنالك في ضفافك معبدي
 النجم يكتب في جبينك كل احلام الغد
 وبحيرة العرق المقدس قد غسلت انا يدي
 واثيت تسبيني الدهوع لتوبتي
 ماتت لغيرك صبوتي
 ولحسن وجهك انت يا شعبي ارتل غنوتي
 فالثلج يسكن كل درب غير دربك
 وانا يهددني الصقيع
 وما عرفت الدفاء يوما غير حبك !

محمد ابراهيم ابوسنه

القاهرة

كانت تعشش في رأسي التعب . فلما مضى وفريدة تنبئه الى سريره ،
 كانت عيناى تلتهبان بجهر ، لم يلبث ان ذاب فكان دعما انسكب على
 الخدين في صمت حزين .

عادت فريدة ضاحكة . لقد تخلصت من فريد واغلقت عليه باب الغرفة ،
 ثم جلست بجانبى ، ولكنها عندما وجدنتي ابكي . . تظاهرت بالانشغال
 لاعداد فنجان قهوة برعت فريدة في اعدادها !

انتابنتي عاطفتان . الاولى تدفعني للهرب . ان هذا المنزل ليس منزلي .
 ان الليلة ليلة تفتح فيها غابة البنفسج . . انها ليلة شيطان !! صحيح
 اني احبها وهي تحبني ولولا حبها اياي لما ضربت موعدا واغلقت خلفنا
 الباب ونرتك العالم كله ينتظر . . ولكن عيون الاطفال المتمثلة في عيني فريدة
 امانت في نفسي اخر ما تمنحه العاطفة من قوة للرجل ليكون قادرا على
 اسعاد من يحب . اما العاطفة الثانية فهي مستمدة من واقع حياة فريدة
 وحياتي معها . انها بصرتني بالفشل في التجربة الاولى . . ان السيدة
 التي تركتها من اجل اطفالها لا تزال تستقبل من هو قادر على خداعهم !
 وما هي تبصرني بالفشل في هذه التجربة ايضا . ان فريدة سوف تضحك
 مني وستهزأ بي . انها لن تقتنع بصدق عاطفتي وافكاري . . ولن تعول
 على فريد او على عيني ، لنفعلنا بي كل ما ساقصه عليها . وبت لا استطيع
 الحركة والتفكير نتيجة لهذه المأساة التي قد تلازم اولي ليالي الحب
 العميق عندما يكون نابعا من القلب ، ويدعى المحبان لظف ناصح الثمار .
 لم تهرب فريدة . لقد ثبتت . . حدثتها عن كل شيء ، ولكنها كانت وهي
 تسمع حديثي ، تسحب انفاسا عميقة من سيجارتها . . وظلت صامتة
 فلم تتحدث ولو بكلمة . . لعلها كانت في حيرة مما فعلته بي عينا طفلها
 وبين ما تريده كامرأة في ليلة فريدة !

استاذنتني لحظة لتلظ على فريد . . قالت لي :

- ان فريد في بداية نومه ينزع عنه الغطاء . . لن اتاخر يا محمود !!
 بينما كانت فريدة تدخل غرفة طفلها ، كنت اجمع اطراف شجاعتي
 واهرب . في الطريق كانت الاضواء تهتز من كثرة ما كانت اجنحة الريح
 تضربها وتعبث بها ، والاشجار تتساقط اوراقها الصفراء بفزارة . وبدأت
 اننسم الحياة من جديد . واخذت ابتمم بينما كنت ابكي ولكن بمسرة
 هذه المرة . لقد تركت فريدة عند ابنتها . . انه بحاجة اليها اكثر مني . .
 سوف تخرج بعد قليل . . ستفتقني في الحمام . . عليها تظن انني ذهبت
 اغسل وجهي بالماء البارد لاطرح اثار الدموع في الحوض . . ولكنها لن
 تلقاني . . ستعلم بعد قليل انني هربت . . ولا ادري ماذا ستقول عني !
 كانت عينا فريد لا تزالان تلاحقاني ، ولكنهما كانتا بشوشتين . وكان
 وجه فريد مطبوعا على كل شيء اراه في طريقي . كنت اراه على وجوه
 السيدات والرجال ، وكان يتوضح كثيرا على وجوه الاطفال العائدين
 في صحبة ابائهم الى المنازل . ولكن عيني لا تزالان تدمعان . كنت احس
 بلهفة جارحة لرؤية فريد . فاجثم على قدميه اقبلهما معنذرا . . لانه
 كان طفلا بسيطا بريئا ، كشف بعيني انني سوف اخذعه ، سوف الوث
 له صرح وجوده ، وساترك اثار اقدامي فوق بنفسج امه وانا في طريقي
 الى باب جنتها المطلق !!

ولا ادري كيف رفعت وجهي الى السماء ، بينما عشرات السيارات
 ومئات المارة حولي . فوجدت عيني فريد تشعان الى جانب النجوم . .
 واحسست ان الهواء قد تغطر بزهور البنفسج ، فكانه قد مر في طريقه
 الى بغابة البنفسج العذراء !!

علي بدور

حمص